

البديع في منظومة ابن معط (*) "البديع في علم البديع"

قراءة في المصطلح والشاهد

د. مسعودة مرسل
المركز الجامعي تيسمسيلت

وتراوحت تسمية هذا الفن بين عدة مسميات فبعضهم يسميه أراجيز، لكون معظمه ينظم على بحر الرجز، مع عدم اطراد ذلك في كل المنظومات، ويسميه البعض الآخر متونا، لكونه يجمع لب قواعد العلم، وهو من حيث الصياغة يجمع «بين الإيجاز والقوة والإحكام، لأن الإيجاز مما يجعل المتن قليل العبارة مركز المعنى، مما يخفف عبء حفظه، ومثونة مراجعته ومذاكرته، كما أن هذا الإيجاز يساعد على قوة العبارة، ومثانة أسلوبها، ويباعد بينها وبين الترهل الذي يثقلها»⁽³⁾، غير أن المتون تتنوع بين قالبى النظم والنثر، وشاع عند البعض تسمية هذا الفن بالألفيات وإن كانت الألفية ما بلغ عدد أبياتها ألفا وهذا غير سائر على جميع تلك المنظومات، كما يطلق على هذا النوع من الفن الشعر التعليمي، غير أنه خال من كل الخصائص الشعرية إلا قلبه ووزنه، والتسمية المناسبة لهذا الشكل هي المنظومات العلمية أو التعليمية، فالنظم هو القالب الذي تقدم فيه، أما مضمونها فعلمي، وأما غايتها فتعليمية⁽⁴⁾.

أما النظم في البلاغة فمن الصعوبة بمكان تحديد بداية له، وإن اعتبرنا أن أول منظومة بلاغية هي التي بين أيدينا، أي منظومة ابن معطي "البديع في علم البديع"، والمسماة كذلك "البديع في صناعة الشعر"⁽⁵⁾، فلم ينظم قبله في البلاغة أحد وإن كانت جلّ المصادر تهمل ذكره، إذ نجد شوقي ضيف مثلاً ينتقل من ابن أبي الأصعب (ت: 654هـ) الذي ألف تحرير التحبير وهو كتاب في البديع، إلى الإربلي (ت: 670هـ) الذي نظم «قصيدة في مدح بعض معاصريه مضمناً كل بيت منها محسناً من محسنات البديع، وبإزاء كل بيت المحسن الذي يشير إليه»⁽⁶⁾، متجاوزاً ذكر ابن معطي رغم أنه سابق لهما، ومتفرد عن طريقتيهما.

وهذا ما أقر له به علي أبو زيد حيث ذكر أن «الإربلي قد سبق أيضاً بمن نظم أنواع البديع في قصيدة واحدة، وإن اختلفت الطريقة التي سلكها كل من السابق والمسبوق، فالفكرة تكاد

لم يعان تراث قديم من الإهمال والتهميش ما عانى التراث الجزائري، وذلك لظروف خاصة مرّ بها هذا الوطن، ولعل أبرز ملمح لذلك التهميش هو جهل ورثته الشرعيين به وبكثير من الكنوز التي حوتها رفوف مكتباته ودفات كتبه، ومن أوجه التراث التي لم تكن أحسن حظاً من نظيراتها التراث اللغوي على تعدد أشكاله وتفردها في كثير من الأحيان، وخير دليل على ذلك ما خلفه علم فذ جاد بها هذا الوطن وامتدت أفنان خيره الباسقة على غيره من الأوطان حتى التي كانت تعتبر منبع اللغة العربية وموطناً من مواطنها الأصلية، إنه "يحيى بن عبد المعطي الزواوي" المشهور بابن معط، رائد المنظومات اللغوية بلا منازع، صاحب أول ألفية في النحو العربي، وصاحب أول منظومة بلاغية في البديع، المعروفة بـ "البديع في صناعة الشعر"^(**)، هذه الأخيرة التي ستكون موضوع مداخلتنا تعريفاً، ودراسة، متطرقين إلى دلائل سبقه في مجال النظم البلاغي وتفرده ما قدمه عمّا اشتهر بعده باسم البديعيات، وسنتعرض بالدراسة للمنظومة وتوظيف المصطلحات البلاغية فيها، وكذا استثمار صاحبها للشواهد الشعرية من أجل الاستدلال على القضايا البلاغية المتطرق إليها في المنظومة.

المنظومات البلاغية:

تعتبر المنظومات العلمية من أقدم الظواهر الأدبية، فهي تمتد بجذورها إلى حضارات الأمم السابقة كالهنود واليونان، ولكن هذا الفن استحدث وازدهر في الحضارة العربية حسب شوقي ضيف في العصر العباسي، والذي دفع إليه هو «رقي الحياة العقلية في العصر، فإذا نفر من الشعراء ينظمون بعض القصص أو بعض المعارف أو بعض السير والأخبار»⁽¹⁾ لسهولة تلقينها كونها موزونة فيسهل حفظها، وقد تعددت مواضيعها بتعدد الفنون والعلوم، فلم تختص بعلم دون غيره، فنُظم في النحو والفقه والسير والتاريخ والقراءات، وغيرها كالتخصص مثل نظم كلية ودمنة⁽²⁾، والطب والفلك والتنجيم.

ثم انتقل مباشرة إلى البديعيات مع صفى الدين الحلي⁽¹¹⁾، ولم يشر إلى منظومة ابن معطي مع أنها خالصة في نظم البديع.

والبديعيات «مجموعة من القصائد، ظهرت في القرن الثامن الهجري، واستمرت حتى القرن الرابع عشر، غرضها المديح النبوي، وغايتها جمع أنواع (البديع) ضمن أبياتها، نوع في كل بيت»⁽¹²⁾، فموضوع هذه القصائد هو مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، على طريقة البوصيري في برده، التي مطلعها:

أَمِنْ تَذَكُّرِ حَبْرَانٍ بِذِي سَلَمٍ ** مَرَجَتْ دُمْعًا جَزَى مِنْ مُقَلَّتِي بِدَمٍ

ولكن الجديد فيها هو تضمينها صنوف البديع، ومبتكرها بإجماع أغلب الدارسين هو صفى الدين الحلي، الذي اهتم بالبديع واطلع على جلّ ما وضع فيه قبله، ورغب في تصنيف كتاب في هذا العلم، ولكن العلة منعه إتمام مراده، فعدل عن تأليف الكتاب إلى وضع قصيدة بديعية في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء على رؤيته في المنام⁽¹³⁾، كما يقول، فجمع بين رغبته في وضع مصنف في البديع وبين تقربه إلى الله عز وجل بمدح خير البرية، فنظم «مائة وخمسة وأربعين بيتا في بحر البسيط، تشتمل على مائة وواحد وخمسين نوعا من محاسنه»⁽¹⁴⁾، مستفيدا من كلّ المصادر التي اطلع عليها حين كان عازما على وضع كتاب في البديع، ومطلع تلك القصيدة⁽¹⁵⁾:

إِنْ جِئْتُ سَلْعًا فَسَلِّ عَنْ جَبْرِ الْعَلَمِ واقرا السلام على غزبِ بذي سلمٍ
فَقَدْ ضَمِنْتُ وَجُودَ الدَّمْعِ مِنْ عَدَمٍ لهم، ولم أَسْتَطِعْ مَعْ ذَلِكَ مَعْ دَمِي

وبعد نظمه بديعته شرحها مبتكرا طريقته الخاصة في ذلك ومؤثرا في من جاء بعده، وتكمن أهميتها زيادة على سنّ صاحبها فنا جديدا في أنّه «لخص فنون البديع وأضاف إليها، وحول هذا الفن إلى علم يكتشف به القارئ جمال المعنى ويعين الأديب على تحسين أسلوبه وتزيينه بطرائق التعبير التي تخدم المعنى المقصود»⁽¹⁶⁾، وقد حذا حذوه كثير من أدباء عصره ومن جاء بعده.

ومن البديعيات بديعية ابن جابر الأندلسي المعروفة بـ«الحلة السيرا في مدح خير الورى» وعدد أبياتها 177 بيتا، والتي مطلعها⁽¹⁷⁾:

بَطِينَةٌ أَنْزَلَ سَيِّدُ الْأُمَمِ وانشر له المذخ وانثر أطيب الكلم

وقد شرحها ناظمها كما شرحها غيره.

تكون واحدة، وهي حشد أنواع البديع في منظومة شعرية»⁽⁷⁾ فمنظومة ابن معطي خالصة في فن من فنون البلاغة وهو البديع، فكان البديع عنده غاية لا وسيلة، بينما نجد الإربلي نظم قصيدة ضمنها أنواع البديع مظهرا براعته وقدرته على الصنعة، وقد بدأها بقوله⁽⁸⁾:

بعض هذا الدلال والادلال ** حال الهجر والتجنب حالي * "الجناس اللفظي"
حرت إذ حزت ربع قلبي وإذ لا ** لي صبر أكثر من إذلالي "الجناس الخطي"
رق يا قاس الفؤاد لأجفان ** قصار أسري ليال طوال "الطباق"

وقد أحصى حسن إسماعيل عبد الرزاق مجموعة من النظم البلاغية كلها متأخر عن نظم ابن معطي، نذكر منها على سبيل التمثيل: «التلخيص في نظم التلخيص» لزين الدين أبي العز طاهر بن الحسن ت: 808هـ، و«الألفية الوردية» للشيخ: زين عمر بن مظفر بن الورد ت: 850هـ، و«الجوهر المكنون» لعبد الرحمن الأخضر ت: 953هـ، وهذه النظم كلها تتجمع على كونها نظم لتلخيص القزويني⁽⁹⁾.

ورغم انحصار هذا الفن وزهد الناس فيه في عصرنا الحالي إلى أنه استمر محافظا على نفسه، فمن المنظومات البلاغية في العصر الحديث: «متن المصباح في علوم البلاغة» للشيخ محمود أحمد هاشم، ولأكي التبيان في المعاني والبديع والبيان لحسن إسماعيل عبد الرزاق، منتها هو الآخر طريقة الخطيب القزويني في تنظيم أبواب البلاغة.

المنظومات البديعية:

ارتبط النظم في البلاغة بفن أصيل في التراث العربي وهو ما عرف بـ«البديعيات»، وتطرق إليها في هذا المقام لكون بعض الدارسين قدّم للتأريخ لها بمنظومة ابن معطي، ورغم اختلافها عنها، لا يمكن إنكار كل ما بينها من صلة، وهي الاهتمام بالبديع، إذ نجد الباحث محمود سالم محمد يعتبر منظومة ابن معطي والإربلي تمهيدا لنشأة البديعيات في الشعر العربي، ويقول في ذلك: «وهاتان الطريقتان في نظم البديع، طريقة الإربلي، وطريقة الزواوي، كان لهما أثر واضح في البديعيات التي ظهرت فيما بعد»⁽¹⁰⁾، والغريب في الأمر أن محمد العمري في تأريخه للبلاغة العربية، وفي المرحلة التي اعتبرها انتقالا «من تنظيم البديع إلى نظمه» تطرق إلى كلّ من السلجاسي في كتابه «المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع» وابن أبي الأصعب في «تحرير التحبير»،

ومنها بديعية علي بن الحسين عزّ الدين الموصلّي ت: 789هـ، وله شرح عليها سمي بـ"التوصل بالبدیع إلى التوصل بالشفیع"، وكان مطلعها⁽¹⁸⁾:

(بِزَاعَتِي) تَسْتَبِلُ الدَّمَعَ فِي الْعَلَمِ *** عِبَارَةٌ عَنْ نِدَاءِ الْمُفْرَدِ الْعَلَمِ

والجديد في بديعته أنه كان يسمي كل نوع من أنواع البديع في البيت الذي يتطرق له فيه.

ثم تولت البديعيات وشروحها «وامتد مجالها حتى صارت تخوض في القضايا الأدبية العامة، وتنتصر لمذهب على مذهب كما هو الحال في شرح بديعية ابن حجة [المحموي] الذي وجد المؤلف في محتواه ما يسمح بتسميته خزائن الأدب»⁽¹⁹⁾، ورغم ما شاع عنها من أحكام عامة كغلبة جانب التصنع عليها والحشو على شروحها لا يمكن إنكار تفرد وتميز هذه الظاهرة في تاريخ الأدب العربي، وما تحويه من فرائد يجب الاهتمام بها وإعادة النظر إليها للإفادة منها.

منظومة ابن معطي:

كما رأينا سابقاً فإن منظومة ابن معطي منظومة بلاغية خالصة حالها كحال بقية المنظومات التي وضعت لمختلف العلوم، وقد خصّصها صاحبها للبديع، ولكنها ليست من البديعيات المعروفة في التراث العربي الإسلامي، ولم تلق هذه المنظومة من التداول والرواج ما لقيته غيرها من المنظومات، سواء في هذا الفن أو في غيره، أو حتى ما لقيته ألفية ابن معطي نفسها من اهتمام.

وقد عرفت المنظومة باسمين مختلفين وربما زاد ذلك من إهمال بعض الدارسين إدراجها في تاريخهم للفعل البلاغي العربي القديم، فاعتبرها بعضهم «من البديعيات المتخصصة في المديح النبوي، وأغلب من ترجم لحياة ابن معطي، كابن عماد الحنبلي، وياقوت الحموي، وابن خلكان، والسيوطي، وكثير وغيرهم لم يشيروا إلى هذه المنظومة في علم البلاغة، بل ذكروا بدلها منظومة في العروض»⁽²⁰⁾، حتى وإن كان نظم في العروض غيرها إلا أن بداية قصيدته توحى بكونها نظمت في العروض، حيث يقول:

وَبَعْدُ فَإِنِّي ذَاكِرٌ لِمَنْ أَتَيْتُ *** بِنَظْمِي الْعُرُوضَ الْمُجْتَلَى وَالْقَوَافِيَا

وقد عرفت هذه المنظومة - كما أشرنا قبل قليل - باسمين مختلفين للمخطوطتين المتوفرتين، الأول «البديع في صناعة الشعر»، وتوجد منه نسخة خطية بليزج، برقم 3/488، ونسخة أخرى، بمكتبة أحمد الثالث بإستانبول، برقم 8/2737، ومن هذه

النسخة صورة بمعهد المخطوطات، بجامعة الدول العربية، برقم (18) بلاغة، باسم: "البديع في علم البديع" والنسخة بقلم نسخي حسن سنة 673، وتقع في تسع ورقات⁽²¹⁾، والنسخة الثانية أتم من الأولى التي تنقص عشرة (10) أبيات في نهايتها، رغم أن الكاتب قد ختمها بعبارة توحى بنهايتها "نجزت بعونه..."⁽²²⁾، ومن الأبيات الناقصة ما يدل على نهاية القصيدة، وهو غير موجود في هذه النسخة، وذلك قول ابن معطي⁽²³⁾:

وَتَمَّ مُرَادِي مِنْ بَدِيعِ نَظْمَتِهِ *** وَفِي كُلِّ نَظْمٍ لِي بَيِّنٌ يَجِبُ
وَلَا غُرُوْ أَنْ تُغْزَى إِلَيَّ غَرِيْبَةً *** فَكَلَّ غَرِيْبٍ لِّغَرِيْبٍ نَسِيبُ

وقد قام بتحقيق هذه المنظومة ودراستها محمود مصطفى أبو شوارب، «والكتاب الذي يقع في عشرين وثلاثمائة صفحة (320)، يبدأ بدراسة تعرض حياة ابن معطي وعصره، ثم تتناول أصول المنظومات العلمية، وتاريخ النظم البديعي منتهية من ذلك إلى تأكيد أن منظومة ابن معطي هي أقدم منظومة بلاغية بين أيدينا، وقد خصصت الدراسة قسماً كبيراً من أقسامها لتحليل منهج منظومة ابن معطي ومناقشة طرق عرضه المصطلح البديعي وإيراده الشاهد البلاغي في متن منظومته على نحو فريد حيث يقدم ابن معطي الفن البديعي في شعر من نظمته على وزن الشاهد الذي تخيره لهذا الفن نفسه وعلى قافيته نفسه»⁽²⁴⁾، وقد أقر صاحب الكتاب -الذي لم أتمكن من الحصول عليه- في هذا التقرير بتفرد ابن معطي في هذا النص وأن هذه أول منظومة بلاغية، وقد اعتمد في تحقيقها على نسخة وصل عدد أبياتها إلى تسع وتسعين ومائتين (299).

استهل ابن معطي منظومته بقوله⁽²⁵⁾:

يَقُولُ ابْنُ مَعْطٍ قُلْتُ لَا مَتَاعَ لِيَا *** مَقَالَةً يَرْجُو الرِّضَا وَالتَّعَاظِيَا
بَدَأَتْ بِحَمْدِ اللَّهِ نَظْمِي مُسَلِّماً *** عَلَى أَحْمَدَ الْهَادِي إِلَى اللَّهِ دَاعِيَا

نلاحظ أنه قد بدأ النظم بحمد الله والصلاة على نبيه - عليه الصلاة والسلام - على عادة الشعراء في ذلك، ولكنه زاد عليهم أن أظهر تعففه وزهده.

وقد تعرض في منظومته إلى ثمانية وأربعين نوعاً من البديع كما تطرق إليه القدامى، لا كما هو عليه الحال عند المتأخرين من البلاغيين، أي أنه أدرج ضمنه شيئاً من البيان والمعاني، ولم يفصل بين البديع اللفظي والمعنوي، بل قد أورد أصنافاً مختلفة من الفنون البلاغية بلا ترتيب بينها، وقد اقتصر عمله على ذكر النوع البلاغي وتعريفه أحياناً كأن يقول:

فَهَاكَ فِي ذِكْرِ الطَّبَاقِ وَحْدَهُ *** مَقَابَلَةَ الضَّدِّينَ أَتَى لِيَا

وغالبا ما كان يقدم للنوع البلاغي بكلمة "هاك"، كما استخدم فعل الأمر "اسمع" مثل ما ورد قوله: "واسمع التسهم"، ثم يقدم الشاهد الشعري المتكون من بيت أو بيتين أو مجموعة من الأبيات ليستشهد على النوع البلاغي الذي ذكره، وكان يتعرض في بعض الأحيان لذلك الشاهد بالشرح، وما يلاحظ على أبيات المنظومة أن كل مجموعة من الأبيات تخص نوعا بلاغيا تتفق في وزنها وقافيتها، وهذا تجديد من ابن معطي ليس على مستوى المنظومات العلمية التي عادة ما كانت تنظم على بحر الرجز، بل على مستوى القصيدة العربية التي لم تكن تنظم إلا على وزن واحد مهما كثر عدد أبياتها، وهذه زيادة أخرى تسجل لابن معطي.

المصطلح البديعي عند ابن معطي من خلال المنظومة:

وإذا انتقلنا إلى دراسة المصطلحات البديعية في منظومة ابن معطي فأول ما يمكن التنبيه عليه هو ما أشرنا له سابقا أن صاحبها لم يفرق بين المحسنات اللفظية والمحسنات البديعية، بل قد أدرج من المصطلحات ما أصبح فيما بعد ضمن علم البيان أو المعاني، ومعلوم أن هذه الأقسام لم تضبط إلا بعد أن وضع السكاكي مفتاحه، وهذا يدل على أن ابن معطي سار على طريق ابن المعتز ودار في الفلك الذي فتحه لمن جاء بعده، وقد كان شغل ابن المعتز التأصيل لأبواب البديع التي ادّعى الشعراء المحدثون في عصره أنهم مجدّدون فيها، فذكر في كتابه بعض ما وجد «في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله عليه وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي ستمّه المحدثون البديع ليعلم أنّ بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه»⁽²⁶⁾، وقد قسم كتابه إلى قسمين، خصّص الأول منه لوجوه البديع الخمسة: الاستعارة، والتجنيس والمطابقة وردّ أعجاز الكلام على ما تقدّمها، والمذهب الكلامي، وخصّص القسم الثاني لمحسن الكلام والشعر التي أقرّ بأنها «كثيرة لا ينبغي للعالم أن يدعي الإحاطة بها»⁽²⁷⁾، والتي ذكر منها: الالتفات والاعتراض، والرجوع، وحسن الخروج من معنى إلى معنى، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، وتجاهل العارف، وهزل يراد به الجدّ، وحسن

التضمين، والتعريض والكناية، وحسن الابتداء، وحسن التشبيه، وإعانات الشاعر نفسه، والإفراط في الصفة، ولقد فتح الباب لمن أراد أن يزيد في هذه الأبواب أو ينقص، والملاحظ لهذه الأبواب يجد أنها لا تقتصر على أقسام البديع الاصطلاحي وإنما يجدها قد اتسعت حتى كاد البديع عنده يساوي البلاغة، وهذا ما نجد في المنظومة.

وقد أشار صاحب رسالة الشعر التعليمي في الجزائر إلى أن هذا النص - البديع في علم البديع - وكأنه عبارة عن نظم لقسم البديع من كتاب الكافي في العروض والقوافي للتبريزي (421هـ، 502هـ)⁽²⁸⁾، وبالمقارنة بين المنظومة وهذا القسم من الكتاب يتضح ذلك التشابه بل نكاد نقول التطابق بين ترتيب أنواع البديع في الكتاب والمنظومة وحتى الشواهد، ويمكن للباحث أن يجد تقاطعا بين عنوان المنظومة في أحد نسخها "البديع في صناعة الشعر" وما استهل به التبريزي قسم البديع من كتابه "الكافي" «ومما يحتاج إليه وتجب معرفته من صناعة الشعر»⁽²⁹⁾ وذكر أصناف البديع التي تطرق إليها في هذا القسم، بالإضافة إلى التشابه بين عنوان الكتاب "الكافي في العروض والقوافي"، وبين البيت الثالث من القصيدة:

وبغد فإني ذاكر لمن ارتضى *** بنظمي العروض المجتلى والقوافي

وهذا يوحي بوجود تقاطع بين المنظومة والكتاب، فبالرغم من كون الكتاب يحوي قسما في البديع على أنه جزء من صناعة الشعر إلا أن صاحبه لم يشر إليه في العنوان، وبالرغم من كون المنظومة في البديع إلا أنّ صاحبها صرح بكونها في العروض والقوافي، وربما يحتاج التحقق من هذا التقاطع إلى دراسات أخرى للفصل في القضية.

وسنعرض لبعض المصطلحات - نظرا لكتابتها - التي تطرق إليها ابن معطي، وعدد المصطلحات التي ذكرها ثمانية وأربعين (48) مصطلحا، وقد تطرق إلى بعضها بشيء من التفصيل، وإلى بعضها الآخر بشيء من الاقتضاب والإيجاز، وسنحاول التفريق بين تلك المصطلحات بحسب تصنيفها وفق علوم البلاغة الثلاث (المعاني - البيان - البديع)، وإن كان في الأمر شيء من الالتباس والتداخل، وذلك أن بعض الأنواع يدرجها بعضهم ضمن المعاني، ويدرجها البعض الآخر ضمن البديع كما هو حال الالتفات، ومن المصطلحات الخاصة بالمعاني نجد:

1- **المساواة:** من المصطلحات التي تخص المعاني نجد المساواة، والتي لم يذكر حدها وإنما قال بعد إيراد الشاهد أن «اللفظ والمعنى سواء»⁽³⁰⁾ وهي طريق بين الإيجاز والإطناب كما قال أبو هلال العسكري: «أن تكون المعاني بقدر الألفاظ، والألفاظ بقدر المعاني لا يزيد بعضها على بعض، وهو المذهب المتوسط بين الإيجاز والإطناب»⁽³¹⁾، وهي الميزة البلاغية التي لا تتأق إلا لقلة من أصحاب البيان، فمن الصعوبة أن يساوي المتكلم بين ألفاظه ومعانيه.

2- **الإشارة:** ذكر بعد المساواة الإشارة وعرفها بقوله «ما أتى بكثرة معنى لفظه غير مسهب»⁽³²⁾، وذلك أن يلح للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، وقد استوفى في تعريفه لها المعنى الذي تدل عليه عند البلاغيين، وقد جعلها أبو هلال العسكري من صنوف البديع⁽³³⁾.

3- **الالتفات:** وهو من أكثر المصطلحات التي لم يقع حولها الاتفاق، سواء فيما يتعلق بضبط حدوده أو في ما يتعلق بإسناده إلى أحد علوم البلاغة، إذ يجعله البعض من المعاني ويجعله البعض الآخر من البديع، وقد يضمه البعض الآخر إلى البيان⁽³⁴⁾، ونجد أن ابن معطي جعله اعتراضاً: والالتفات هو اعتراض مجمل *** فيه لحسان جمال المجمل

مع أن ابن المعتز وأبا هلال العسكري فصلها بينهما⁽³⁵⁾، ورأي ابن معطي مطابق لرأي التبريزي الذي يعرف الالتفات بقوله: «أن يكون الشاعر في كلام فيعدل عنه إلى غيره قبل أن يتم الأول، ثم يعود إليه فيتمه فيكون فيما عدل إليه مبالغة في الأول وزيادة في حسنه»⁽³⁶⁾، والشواهد التي ذكرها هي شواهد الاعتراض.

ومن المصطلحات التي تخص البيان: نجده ذكر الاستعارة والإرداف والمائلة والكناية والتعريض.

1- **الاستعارة:** لم يقدم الناظم تعريفاً للاستعارة، واقتصر على ذكر شواهدا، وقد خصص الشاهد الثاني بقوله⁽³⁷⁾: أما جرير فاستعار مطابقاً فعلاً *** وما بذى الاستعارة من عار فالاستعارة التي أوماً إليها ولم يسمها هي الاستعارة التبعية، وما تميز به بيت جرير أنه أورد استعارتين مع الطباق⁽³⁸⁾: يجي الروامس قبرها فتجده *** بعد البلى وقيمته الأمطار فني "يحي الروامس" و "تميته الأمطار" استعارتان، وبين يحي وقيمته طباق.

2- **المائلة:** والتي لم يعرفها وقد أعطى بعض مؤشراتها مكتفياً بشرح الشاهد:

وهاك في ذكر المائلة استمع *** مقال زهير باستعارة مفهم

وهي بذلك «ضرب من الاستعارة»⁽³⁹⁾ كما ذكر التبريزي، وقد عرفها العسكري بقوله: «أن يريد المتكلم العبارة عن معنى، فيأتي بلفظ تكون موضوعة لمعنى آخر، إلا أنه ينبي إذا أورده عن المعنى الذي أراد، كقولهم: فلان نقي الثوب، يريدون به أنه لا عيب فيه، وليس موضوع نقاء الثوب للبراءة من العيوب، وإنما استعمل فيه تمثيلاً»⁽⁴⁰⁾، على سبيل استعارة اللفظ لما ليس له. 3- ومن ألوان البيان ذكر الكناية والتعريض ولم يتعرض لتعريفها بل اكتفى بذكر الشواهد عليها، وهناك نوع من البديع قريب من الكناية وهو:

4- **الإرداف (الأرداف):** عرّفه بقوله⁽⁴¹⁾:

وهاك في الأرداف وهو اكتفاؤه *** بفحوى الكلام المجتلى كالأول

والشواهد التي ذكرها في الأرداف هي التي يذكرها البلاغيون في الكناية، وهذا ليس إشكالا خاصا بآبن معطي ولا التبريزي الذي سار على طريقته، بل هذا إشكال لصيق بالمصطلحين إذ هناك تداخل بينهما، وقد أدرجت الكناية ضمن البيان والإرداف ضمن البديع، ولا أظن الفرق بينهما إلا في طبيعة الإحالة، وقد أشار السيوطي إلى الفرق بينهما في قوله: «الكناية انتقال من لازم إلى ملزوم، والإرداف من مذكور إلى متروك»⁽⁴²⁾، ففيها معا معنيان لفظ ظاهر ليس مراداً، ومعنى خفي هو المراد.

وبقية المصطلحات تندرج ضمن علم البديع الاصطلاحي، وقد كان يعرض لبعضها بشيء من التفصيل بذكر الأنواع كما هو الحال في الطباق، ذكر منه طباق النفي⁽⁴³⁾:

ومنه طباق النفي للبحري قد *** أتى منه فاعلم أن ذاك المقدم

ولم يسم طباق الإيجاب واكتفى بذكر شواهدا، وذكر من أنواعه طباق اللفظ⁽⁴⁴⁾:

ومنه طباق اللفظ وافى بذكره *** حبيب له هاتا لتلك يقابل

وطباق الرد في قوله⁽⁴⁵⁾:

ومنه طباق الرد حيث يردّ ما *** بأخره يأتي على أول يعرو

كما عرض لأنواع من الجنس وقد سّماه تجنيساً⁽⁴⁶⁾:

وهاك في التجنيس وهو اشتقاقه *** من اللفظ لفظاً منه ذا المطلق اتسا

مع أن الجنس في عمومه لا يكون بالاشتقاق بل هو تشابه أو اتفاق اللفظتين واختلاف المعنى⁽⁴⁷⁾، وقد جعل من أنواعه ما توافق لفظاه دون المعنى⁽⁴⁸⁾:

ومن الجنس توافق اللفظين لا الـ*** معنى كقول حبيب المتناهي

وذكر من أنواع الجنس الناقص الوافي⁽⁴⁹⁾:

ومن التجنيس الذي آزاد حسنا *** ما يسمى بناقص وهو وافي

كما ذكر من أنواع الجنس تجنيس المضاف⁽⁵⁰⁾:

وتجنيس المضاف يعد أيضا *** على بعد من الحسن التام

وهذا النوع لم نجد ذكرا له لا عند العسكري من المتقدمين ولا القزويني من المتأخرين، وإنما قد ذكره التبريزي وهو الذي قال في شرح شاهده، «كل واحد منها موافق في المعنى لصاحبه، لكن أحدهما مقترن بالقمر والآخر بالليل فكأننا كالمختلفين»⁽⁵¹⁾ والكلمة هي "التام" التي أضيفت مرة إلى "القمر" وأخرى إلى "الليل".

ولم يتطرق إلى بقية أقسام الجنس التي ذكرها البلاغيون ولكنه ذكر التصحيف مستقلا عن أنواع الجنس، متبعا في ذلك التبريزي، يقول فيه:

وهناك في التصحيف ما راق لفظه *** فبانت بيت البحري عجائبه

والكلمتان هما (المغتر والمغتر)، وذكر ابن أبي الأصبع أن تجنيس التصحيف هو «أن يكون النقط فارقا بين الكلمتين»⁽⁵²⁾، أي أن تختلف نقط الكلمتين وإن تشابه رسمهما، مثل: يعني ويُنْغِي.

وبما أنّ المنظومة خاصة بصناعة الشعر لم نجده يذكر السجع لأنه خاص بالنثر، ولكنه ذكر أقساما له خاصة بالشعر كالترصيع والترصيع.

الشاهد البلاغي عند ابن معط من خلال المنظومة:

وإذا اكتشفنا هذه النماذج من مصطلحات المنظومة، وذهبنا إلى شواهدنا فبيرة الكثرة لا تفارقها، وهي كما أحصيتها في النسخة التي اعتمدتها بإضافة الأبيات الناقصة خمسون شاهدا جاعلة من الشاهد كل ما يذكره للشاعر للاستشهاد على النوع الذي يتطرق إليه حتى وإن تجاوز البيت إلى الاثنين وحتى الخمسة، بينما يذكر مصطفى أبو الشوارب أنه استشهد بستة عشر ومائة شاهد شعري (116)⁽⁵³⁾.

وقد كانت هذه من مميزات ابن معطي إنه لم يكن يستشهد بالبيت منفردا بل كان يستشهد بالبيت والبيتين والثلاثة والأربعة والخمسة بحسب ما يقتضيه المقام، وما يتم به معنى الاستشهاد على النوع البلاغي الذي يذكره كما هو الحال في التضمين والتفويف مثلا، وقد اكتفى في موضع للاستشهاد على التجنيس بذكر محل الشاهد فقط، وذلك قوله⁽⁵⁴⁾:

ومنه قول امرئ سال السليل بهم *** هذا السليل يعني به وادي

والبيت لزهير بن أبي سلمى⁽⁵⁵⁾:

كأن عيني وقد سال السليل بهم *** وجيرة ما هم لو أنهم أم

كما اكتفى بذكر شطر بيت دون أن ينسبه إلى صاحبه، كما هو الحال في الكافي⁽⁵⁶⁾:

ومنه قول امرئ بانت أجنة ** "مستحقين فؤادا ما له فادي"

والبيت للقطامي⁽⁵⁷⁾:

كية الحي من ذي الغضة احتملوا ** مستحقين فؤادا ما له فادي

ومما يظهر قدرة ابن معطي الإبداعية هو ختمه للمنظومة بقوله:

وتم مرادي من بديع نظمته *** وفي كل نظم لي يبين عجيب

ولا غرو أن تعزى إلي غريبة *** فكل غريب للغريب نسيب

وهنا يظهر إحساس الشاعر المرفه وشعوره بالغربة التي لم تفارقه رغم ما حظي به من مكانة علمية في البلدان التي استقر بها، وفي هذا الختام نوع بلاغي هو التضمين لا كما حدّده في منظومته بل ضمن شعره امرئ القيس في قوله:

أجارتنا إنا غريبان هاهنا *** وكل غريب للغريب نسيب

وبهذا ننهي بحثنا المقتضب عن منظومة ابن معطي رائد فن النظم في تاريخ الأدب العربي على الإطلاق، فهو كما أشرنا ناظم أول ألفية في النحو، وصاحب أول منظومة بلاغية، وقيمة هذه المنظومة لا ما قدمته من أنواع ولا شواهد وإنما في ابتكار صاحبها لطريقة نظم أنواع البديع مستفيدا من قسم البديع المنسوب للتبريزي في كتابه الكافي في العروض والقوافي، وقد تميزت المنظومة بكثافة اصطلاحاتها وتنوع شواهدا، وبراعة صاحبها في تنويع أوزانه بحسب الشواهد التي يوردها، ولم تحظ هذه المنظومة بشارح كفء يخرجها من الظلام الذي غطى عليها لحقب من الزمن فتظفر بشيء من التناول يفك صعبا ويلم شتات مصطلحاتها ويردّها إلى أصولها، وما يؤسف له حقا أن ما ظفر

به هذا النص من تحقيق لم يكن من أبناء هذا البلد، وإنما عاد إليه من غربة عاش فيها النظم وصاحبه.

مرسلي مسعودة

الهوامش

(*) ابن معط: وهو أبو الحسن يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور بن علي بن نصر الزواوي البجائي، عاش بين سنتي (564هـ-628هـ) ولد ببجاية وتعلم علوم عصره، وتفق في العربية والنحو، وأجاد نظم الشعر، رحل إلى دمشق ودرّس بها، ثم انتقل إلى مصر بعد أن استدعاه حاكمها، وأقرأ بها النحو والأدب إلى أن توفي. خلفاً تراثاً قيمياً، أهمه: منظومة "الدرة الألفية في علم العربية"، ومنظومة "البديع في علم البديع"، و"الفصول الخمسون في النحو" وغيرها. ينظر: العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين (14/3هـ)، عمار هلال، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص249، وينظر: الشعر التعليمي في الأدب الجزائري القديم على عهد الموحدين، دراسة في موضوعاته وبنيتها، ابن معطي نموذجاً، عبد الرحمن عبان، ص: 115.

(**) هناك اختلاف في تسميتها بين "البديع في صناعة الشعر" و"البديع في علم البديع" وستنطرق إلى ذلك في متن المداخلة بإذن الله تعالى.

(1)- تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط: 16، ص: 190

(2)- والتي نعلمها أبان بن عبد الحميد، وقد نظم في القصص والتاريخ والفقه وغيرها من الفنون.

(3)- لآلئ التبيان في المعاني والبديع والبيان، حسن إسماعيل عبد الرزاق، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط: 01، 1405هـ، 1985م، ص: 06.

(4)- الشعر التعليمي في الأدب الجزائري القديم، رسالة ماجستير، ص: 42.

(5)- هذا اسم مخطوط للمنظومة محفوظ في مكتبة جامعة Leipzig تحت رقم: Vollers 0488-03

(6)- البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط: 09، ص: 360.

(7)- البديعيات في الشعر العربي، نشأتها تطورها أثرها، علي أبو زيد، عالم الكتب، بيروت، ط: 01، 1403هـ، 1983م، ص: 68.

(8)- فوات الوفيات، محمد بن شاكر، ج: 03، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط: 01، 1973، ص: 39.

(9)- ينظر: لآلئ التبيان في المعاني والبديع والبيان، ص: 10/9.

(10)- المداخيل النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، محمود سالم محمد، در الفكر، دمشق، ط: 01، ص: 500.

(11)- ينظر: البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، محمد العمري، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1999، ص: 61، وما بعدها.

(12)- البديعيات في الشعر العربي، ص: 06.

(13)- ينظر شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع، صفي الدين الحلي، تخ: نسيب نشاوي، دار صادر، بيروت، ط: 02، 1992، ص: 54.

(14)- نفسه، ص: نفسها.

(15)- البديعيات، ص: 215.

(16)- شرح الكافية البديعية، ص: 09، (مقدمة المحقق).

(17)- ينظر: البديعيات في الشعر العربي، ص: 76.

(18)- ينظر: البديعيات، ص: 78.

(19)- البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 63.

(20)- الشعر التعليمي في الأدب الجزائري القديم على عهد الموحدين، دراسة في موضوعاته وبنيتها، ابن معطي نموذجاً، عبد الرحمن عبان، ص: 115.

(21)- الفصول الخمسون، ابن معطي، تخ: محمود محمد الطناحي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1977، ص: 27.

(22)- كتاب البديع في صناعة الشعر، زين الدين يحيى بن معط الزواوي، (مخطوط)، ص: 58.

(23)- البديع في علم البديع، ابن معطي، نقلاً عن: الشعر التعليمي في الجزائر، (الملحق الثالث)، ص: 184.

(24)- قصة كتاب: البديع في علم البديع، ليحيى بن معطي، محمد مصطفى أبو الشوارب، عن موقع: <http://www.middle-east-online.com?id=209011> بتاريخ: 2015/10/09.

(25)- كتاب البديع في صناعة الشعر، ابن معطي، ص: 02.

(26)- البديع، ابن المعتر، ص: 02، www.al-mostafa.com.

(27)- نفسه، ص: 31.

(28)- ينظر: الشعر التعليمي في الجزائر، ص: 117. (رسالة ماجستير)

(29)- الكافي في العروض والقوافي، الخطيب التبريزي، تخ: الحساني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 03، 1415هـ، 1994م، ص: 170.

(30)- البديع في صناعة الشعر، ص: 14.

(32)- كتاب الصنائع، الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، تخ: عبد المحسن سليمان، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط: 01، 2013م، ص: 161.

(33)- البديع في صناعة الشعر، ص: 15.

(34)- ينظر: كتاب الصنائع، ص: 327.

(35)- ينظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن الطبل، دار الفكر العربي، القاهرة، 1418هـ، 1998.

(36)- ينظر: البديع، ابن المعتر، ص: 31، ص: 32، وكتاب الصنائع، ص: 373، ص: 375.

(37)- الكافي في العروض والقوافي، ص: 185.

(38)- البديع في صناعة الشعر، ص: 10.

- (39)- نفسه، ص: نفسها.
- (40)- الكافي في العروض والقوافي، ص: 182.
- (41)- كتاب الصناعتين، ص: 332.
- (42)- البديع في صناعة الشعر، ص: 12.
- (43)- الإتيان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تخ: طه عبد الرؤوف، ج: 03، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص: 104.
- (44)- البديع في صناعة الشعر، ص: 04.
- (45)- نفسه، ص: نفسها.
- (46)- نفسه، ص: نفسها.
- (47)- نفسه، ص: 07.
- (48)- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تخ: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، 1424هـ، 2004م، ص: 375.
- (49)- البديع في صناعة الشعر، ص: 08.
- (50)- نفسه، ص: نفسها.
- (51)- نفسه، ص: 09.
- (52)- الكافي في عروض والقوافي، ص: 174.
- (53)- تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الأصبع، تخ: حنفي محمد شرف، دط، ص: 105.
- (54)- قصة كتاب: البديع في علم البديع، ليحيى بن معطي، محمد مصطفى أبو الشوارب، عن موقع: <http://www.middle-east-online.com?id=209011> بتاريخ: 2015/10/09.
- (55)- البديع في صناعة الشعر، ص: 07.
- (56)- الكافي في العروض والقوافي، ص: 173.
- (57)- البديع في صناعة الشعر، ص: 08.
- (58)- ديوان القطامي، عمير بن شليم التغلبي، تخ: محمود الربيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001، ص: 204.